بقلم الوجدان

من وحي الجهاد . .

الأخ ج. م

إلى الذين قاسوا مرارة الجرح ، ولظى العذاب .. إلى الذين حققوا معجزة النصر ، ووقفوا ينظرون بدهـــشة الطفل والشعلة تذوي بين أيديهم .. إلى الذين ماتوا لأجل ذلك النصر وإلى الذي عاشوا ليشهدوا خيبة الأمل ..

إلى .. .. أبطال هذه القصة –الذين أرجو أن يغفروا لي تصرفي في أحداثها– أهدي هذه الكلمات

صحا من غيبوبته ، وتحرك بنصف جسده العلوي ، وتلوّى في مكانه كأنه مشدود إلى الأرض ومد يده إلى فخذه الأيمن يتحسس الجراح ، ولكن يده تجمدت قبل أن تصل .. فلقد كانت هي الأخرى مكسورة الساعد .. وتراجعت عيناه بيأس واستسلام حينما نظر إلى الجرح الغائر في فخذه . إنه حضر أمس المعركة .. ولم يستطع الانسحاب من مواقع المعركة نظراً لما أصابه من جروح .. ونظر حوله باستطلاع كمن يخشى أن يلحق به العدو .. وشد شاربه بأسنانه حينما تذكر أنه طلب من زملائه أن يطلقوا عليه الرصاص حتى لا يقبض عليه العدوّ حيّاً فيفتنوه ويأخذوا منه أسراراً خطيرة .. وعزّ على زملائه أن يقتلوا مجاهداً بأيديهم ، ولكنهم في الوقت نفسه لا يستطيعون أن يحملوه معهم ، فكلهم جرحى لا يقوى الواحد منهم على حمل سلاحه .. فألحّ عليهم أن يسارعوا بالانسحاب قبل أن يقبض عليهم العدو الغاشم المنتشر هنا وهناك في شعب هذا الجبل ، وأن يوجهوا له رصاصة تريحهم منه . ولكن أحد إخوانه يمسك برشاشه ويقول له : (والله يا أخي ما خرجنا الجبل ليقتل القوي منا الضعيف ولا ليقتل المعافى منا الجريح .. ولكن هذه الرصاصة الباقية لن تدخل إلاّ في قلب أعداء الله ولن أبرح هذا الجبل إلاّ وأنت معي أو أهلك دونك) .

ويلتفت إلى إخوانه قائلا : (سيروا أنتم وسط هذا الوادي . وموعدنا إشراقة شمس الغد إن شاء الله) ..

كان الوقت يقارب منتصف الليل ، وكنت أحسّ نفسي ثقيلاً على أكتاف زميلي كأني أنا الذي أحمله على كتفي .. وكان الطريق وعراً والرصاص الطائش ينهال علينا من هنا وهناك ، والأضواء الكاشفة تجعل من الليل نهاراً ، الأنين في كل مكان ، والأشلاء متناثرة كفحم يطفوا على سطح الماء .. ولمن نتجاوز بعد ميدان المعركة إلاّ قليلاً ،

حتى أحسست من أخي أنّةً مكبوتة كمن يخفي ما أصابه ، ورحت أسقط في تثاقل بجواره وراحت يدي تتحسس مكانه كأعمى فقد عصاه ، حتى التقت يدانا فتعانقت كالذي يودع عزيزاً مسافراً إلى البعيد .. ويده الأخرى تناولني الرشاش و لم أسمع بعدها منه إلاّ الشهادة .. وعانق مصيره في همة واعتزاز .

يا له من حظ .. الشهادة في ميدان القتال ، أمل رائع وهدف يسعى له الجميع .. فنم قرير العين ، وهنيئاً لك بوعد رب العالمين .

ووجدت نفسي وأنا أمام جثمانه أكثر عزماً وأشدّ صلابة ، فأخذت الرشاش ، هذه الأمانة التي قلدني إياها الشهيد سأحافظ عليها حفاظي على حياتي ، وأحسست برغبة في الحياة لأجل الشهادة .. ورحت أواصل الطريق وأتبع العصا التي أتوكأ عليها كبقرة هدية تُجرّ من منخريها ، وفي خلال ذلك كان الدم يسير من جوانب عدة ، و لم أدرِ كم من الوقت سرت ، ولا كم من الشعاب والبطاح اجتزت ، حتى بدأت الشمس تظل بحياء من خلف مخارم هذه السلاسل الشامخة من الأوراس ، وكنت قد بلغت درجة من الإعياء لا توصف ، ربما بسبب النـــزيف ، ربما من العطش إذا لم أذق قطرة ما منذ يومين .. أما الجوع فلم أدر وقتها ، هل أنا جائع أم لا ؟ و لم يكن الأكل في تلك الآونة من الزمن وفي تلك الظروف من الثورة بالأمر المهم ، واستسلمت إلى جذع شجرة ورحت في إغماء شديد طويل ، وكثرت الصور أمامي ، شرائط متداخلة في فوضى المعارك ، الرصاص يصمّ الآذان ، القنابل تهز الأرض وتفتت الصخر فتتطاير شظاياه في الهواء .

الطائرات بمحركاتها القوية تبعث الرعب والهلع .. أصوات ثابتة (الله أكبر .. الله أكبر) تبعث الثقة والطمأنينة وتؤنس النفوس الموحشة ، فتقابل الشدّة بشدة وتقابل الخوف بشجاعة وإقدام وأرى كأني في البيت والأطفال من حولي لهم طنينٌ كطنين النحل . وأمهم تملأ الدار خفة ونشاطا .. وكأس الشاي الساخن في يدي وأمل .. ابنتي الصغرى تقفز فوق ركبتي فينسكب الشاي ويحترق جسدي ، فانتفضت وإذا بي تحت شجرة يكفّنها الصمت .. وإذا الآلام تسري في عروقي مسرى الدماء ، فتحركت ببطء مستعيناً بذلك الغصن الذي فارق أصله كما فارقتُ فرقتي ، وجعلت منها عصا أتوكأ عليها ، ولولا حرصي على الرشاش .. التركة الغالية والأمانة الخطيرة التي تركها لي الشهيد لرميت به ، فلم أعد أقوى على حمل شيء ، وسرت ببطء وتثاقل متلمساً طريقاً سهلة بين الصخور والأشجار .. كانت الحياة من حولي صامتة في بلاهة كأنها تنظر إلى ما يلحق بي من مخاطر فلا تقوى على التفوه ، بل لعلها كانت تنتظر المفاجأة ، وإلى أيّ حدٍّ أقوى على الدفاع من أجل البقاء ، دفاع الآلام ، ودفاع النـــزيف ، ودفاع الأعداء .. وها هي المفاجأة الأولى أمامي ، لقد علا دخان من بين الأشجار وتعانقت ألسنة النار في الأفق ، وتنفست الصعداء وأحسست بعطش شديد .. إنهم الفحامة سأجد عندهم ماء وراحة ، ورحت أقترب .. كان كل شيء هادئاً وليس هناك ما يلفت الانتباه ، ولما اقتربت أكثر بدت لي رؤوس هؤلاء الواقفين حول النار تلمع ، كأنهم يرتدون عمائم من حديد .. إنها دورية عسكرية تحرق بيوت الفحامة جزاء إيوائهم للمجاهدين .. ها هم أمامي يأكلون (السردين)

ويتسلون بحطام البيوت يا إلهي ما عساني أفعل ؟ وأنا الآن على بعد خطوة منهم ورشاشي لا يحمل في أحشائه غير رصاصة واحدة ؟ .. ولو تراجعت خطوة واحدة لسمعوا وقع عصاي على الأرض ولافتضح أمري .. ماذا أفعل ؟

وحيث أقف متردداً كانت هناك شجرة تناثرت تحتها غصون مكسورة فتلاشيت تحت غصن من هذه الغصون ، فكان إذا واريت أقدامي انكشفت رأسي وإذا واريت رأسي انكشفت قدماي ، وسلمت أمري لله .. وبعد لحظات تحرك بعض الجنود هنا وهناك و لم يعجبهم الجلوس إلاّ حول الشجرة التي أقبع تحتها كعصفور بلله المطر .. ووالله لو صمتوا قليلاً لسمعوا أنفاسي المتلاحقة ولسمعوا هرائي وأنا في غيبوبتي التي ما فطنت منها إلاّ وأنا مرة أخرى وحيدا .. سكنت النار وصارت البيوت خراباً وانسحبت الدورية .. ولولا هذا الدمار الذي تركوه وراءهم لكذبت نفسي فعلا .

وبدأت الرحلة من جديد .. رحلة الوصول إلى مكان التجمع أو إلى أي إنسان آخر أجد عنده نهاية لهذه الوحدة ولهذه الآلام ..

وبدأت أسير بصعوبة ، كان الظلام يزحف رويداً رويداً ، وبدأت الوحشة تستولي عليّ ، وبدأت أحس أن الخوف أصم ليس له آذان ، وأبكم ليس له كلام ، ولكني أحس فعلاً أن للخوف أقداماً يسير بها خلفي أينما رحت .. ما هي المفاجأة التي يخبئها لي الظلام ؟ يا إلهي .. إن أنا خرجت للجهاد ابتغاء مرضاة وجهك فسدد خطاي إلى الخير واجعل خاتمتي شهادة ، وإن أنا خرجت وراء عزٍّ اشتهر به أو وسام أتقلده فاجعل الخوف يخرب معاقل عقلي .. والوحشة تقطع أحشائي ، وإن كنت من الذين يرتجلون البطولة ارتجالا .. فاجعل الجبن إطار حياتي والفشل الذريع نهاية ترهاتي .

ورغم ما كنت أعانيه إلاّ أنني لم أنس أن أصلي وأنا جالس إلى صخر أو مستندٌ إلى جذع شجرة .. وبعد الصلاة تأمن النفوس شرّ الشيطان ، ويهدأ من الروع قلق الوحدة ، وتسكن الأرواح إلى خالقها في خشوع ، وأحسست بعد ما صليت العشاء أني أتجاوز فعلاً أياماً طويلة من الخوف .. وسرت وأنا رابط الجأش ثابت الجنان ، وبدأت أحدث نفسي : هل هذه الخطوات الثقيلة التي أسيرها على عصا وأحمل بها عبء آلامي تضيف شيئاً إلى أهرامات الخطوات التي سارها الشهداء منذ عصر طويل ؟ وهل هذا الرشاش الذي أحمله يضيف شيئاً إلى الأمجاد التي رسمها كل من يحملها ؟ وهذه الرصاصة اليتيمة التي في مخزنه ماذا تضيف إلى ما صنع الرصاص قبلها ؟ وإذا كانت كل هذه لا تضيف شيئاً فما جدواها وما جدواي ؟ وهذه الدماء التي تسيل من كل جرح في جسدي هل تضيف شيئاً إلى أنهار الدماء التي انهمرت ممن سبقوني في هذا الطريق ؟ وإذا كانت هي الأخرى لا تضيف شيئاً فما جدواها وما جدواي .. وإلى هذا الحد انقطعت سلسلة محادثتي لنفسي على عواء ذئب جائع وانتفضت كديك تحت خنجر القصاب .. الذئاب لها مواقف مثيرة معنا في الجبال ، إنها الذئاب التي ذاقت اللحم البشري ، كم من الإخوة أكلتهم الذئاب وهم قائمون يصلون ، كم من حارس داهمته فقطعت جسده ، وها هو اليوم دوري قد حان فمن يخلّصني منها غير الله ..

حتى الرشاش ليس في جعبته غير رصاصة واحدة وإذا أطلقت النار فقد يكون العدو قريباً فينكشف أمري ، ومن يضمن لي أن الرصاصة هذه ستخلصني من هذا الذئب الجائع ؟

وحينما تكون مساحة الألم أبلغ من مساحة الطعنة ، وحينما تكون مساحة الجوع والحرمان أعظم من مساحة الصبر فإن الصرخة تشتد وتحتد ، ولذلك اشتد خوفي من أول صرخة صرخها الجائع ، وبدأ يقترب ورغم الظلام كان شكله يخيفني وكنت أتصور أنيابه أسواطاً قاطعة ومخالبه خناجر حادة ..

يا إلهي إنّ مقابلة فرقة كاملة من جيوش الأعداء لأهون علي من أن يلتهمني ذئب جائع .. وبدأ الخوف يعبث بقلبي والرعشة تحرك كياني وبدأ الاهيار يدب في عقلي وجسدي ، وبدأ الذئب يقترب مني باحتقار ، كأنه شم رائحة الدماء فعرف نهايتي وقلة حيلتي ، واقترب أكثر و لم أملك إلاّ أن أصوب له تلك العصا أوهمه أنها بندقية ولكنه ما عبئ بها ، وراح يقرض طرفها في تحدٍ ظاهر ، فجعلت أنوشه بأملٍ واهٍ ضعيف و لم تكن محاولاتي هذه غير إمدادٍ للوحش بناب فوق نابيه وتقوية للقوس بقاب مع قابيه ، وتكررت محاولاتي اليائسة وكان خوفي أن تسمع عواءه ذئابٌ أخرى فتجتمع على أكلي .. وعندما أحسست بالخيبة الحقيقية ، خيبة الأمل ألاّ أموت شهيداً برصاص الأعداء .. والخيبة أن أموت بين مخالب الذئاب .. فلا قرّت عيني ولا سدّدت خطاي .. ليتني ما سعدت بحمل السلاح وليتني ما وشحت لباس القتال .. أي شرف يناله من أكلته الذئاب ؟ أي نهاية أسوأ من نهايتي ؟ أي عار أن يفرّ المقاتل الجريح من الأعداء فتأكله الذئاب وهنا كان الذئب قد ضاعف هجماته ، وضاق بمحاولاتي اليائسة ، فأصبح يقبل ويدبر بعد أن يترك ثغرة في هذا الجسد البائس كأنه يتذوق دمي ، وأحسست بأنيابه تقطع بعض الأجزاء من فخذي وكتفي ، إنها أحدّ من الرصاص .. وامتدت يدي رغم آلامها إلى الرشاش ، يجب أن أستعمل هذا الرشاش وأخلّص نفسي من هذه المذلة وليسمع الأعداء فالموت أهون ، والشهادة تحت تعذيبهم هدف وأمل كل مجاهد .. ولست أدري كيف انطلقت الرصاصة ولا كيف وقع الذئب أمامي جثة تتلوى كالحية التي قطع رأسها ، فأحسست بارتياح ونشوة ، و لم أبال بمن سيسمع هذه الرصاصة التي راح صوتها يعبث بهدوء الليل نذيرَ خوفٍ وانتقام ، ويدغدغ الآفاق بشيرَ عدلٍ وانتصار وأحسست بنشوة عارمة وشعرت بالمستقبل يتجسد أمامي وأنا وسط هذه الشعاب أرتل مع رفقائي الأنشودة الخالدة .. كلماتها من رصاص ومضمونها من إيمان قوي .. أقوى من المدافع والطائرات .. كم هو رائع أن ينازل الخروف الوديع الذئب الجائع فينتصر الخروف ؟ كم هو رائع أن يتحدى الرشاش الصغير المدفع المخيف فينهزم المدفع ؟ كم هو رائع أن تنتصر القلّة المؤمنة على الكثرة الكافرة ؟ ليس غريباً أن ينتصر الإيمان على الهمجية .. وليس غريباً أن تدك جحافل الظلم ، وتخر الدنيا لصوت الحق بقدر من الله ونصره ..

نحن لا نقبل أن نخوض المعركة مع المستبدِّين ضدَّ المستعبَدين ، ومع المستغلِّين ضدَّ المحرومين .. ولا مع الأمريكان ضدَّ الروس ، ولا مع الروس ضدَّ الأمريكان ..

معركتنا الوحيدة هي المعركة التي نخوضها مع الإسلام نرفع به الظلم في بلادنا –وفي عالمنا إن قدرنا– عن سائر الناس ، ونحقق به العدل لسائر الناس

ومن هنا كان لا بدَّ لدعاة الإسلام والمؤمنين به أن يتميزوا باتجاههم ومواقفهم على الصعيد المحلي ، وأن يتميزوا باتجاههم ومواقفهم على الصعيد الدولي ، فلا يكونون في بلادهم تبعاً ولا أداة لهذه الحكومة أو تلك من الحكومات التي لا تحكم بالإسلام ، ولهذه الطبقة أو تلك من الطبقات التي تتنكر للإسلام ، ولهذا النظام أو ذاك من الأنظمة المحاربة أو المغايرة للإسلام .. ولا يكونون في عالمهم تبعاً ولا أداة لهذه الدولة أو تلك ولهذه الكتلة أو تلك ولهذه المصالح الاحتكارية والسياسية أو تلك مما يتحكَّم أبشع التحكُّم في عالمنا اليوم ..